القصة الشهرية

الغرفة رقم ١٣

فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، غمرت فرنسا موجة من البطش والقسوة ، وشملتها جميعا نزعات من الجمود النفسى أحالتها إلى أداة شريرة قوضت صروح الرحمة والشفقة ، وأنشأت على أنقاضهما عهدا من أقسى عهود الارهاب التى عرفها التاريخ ، فقد شهدت الأيام التالية للثورة الفرنسية المعروفة ، مذبحة من أبشع المذابح البشرية التى تطايرت خلالها ألوف من الرؤوس تحت المقصلة (الجيلوتين) ، وشهدت كذلك بطش الانسان بأخيه الانسان فى أوضح صورة وأكمل معنى

فلسنا ننسى ماحدث فى سنتى ١٧٩٣ و ١٧٩٤ حين تولى روبسبير رياسة لجنة الأمن أو كما سماها المؤرخ المنصف لجنة السفاكين ، فلقد انتهكت هذه اللجنة الحرمات وعبثت بالحريات ، وأطلقت العنان لقراراتها الشريرة ، وساقت إلى ساحة الاعدام المئات من الأبرياء فأحالت القصور والأديرة ، والدور الفسيحة إلى سجون رهيبة ضمت الألوف من المواطنين المتهمين بالعداء للثورة أو المشتبه فى أنهم أعداء لها : فكانت باريس فى ذلك العهد (عهد الارهاب) أشبه شىء بمحاكم التفتيش فى القرون الوسطى أو أشد بطشاً وفتكاً ؛ وكان الباريسيون كأ كلة لحوم البشر ، ولعين بمرأى الدماء ، كلفين بتطاير الرؤوس ، تحشد سوقتهم أمام السجون والمعاقل ليملأوا أعينهم من المشاهد القاسية التى تجرى بين جدرانها وأمام أبوابها ، وليروا بأنفسهم ما يقاسيه ضحاياهم من العذاب والذل

ولسنا نعنى هنا بحوادث الثورة فهى معروفة مشهورة ، وإنما سنتناول قصة من قصصها الطريفة الرائعة التى أغفلتها المؤلفات والمراجع ، والتى تعتبر بلا شك من أحرى الوقائع والحوادث بالبحث والدرس

هى وقائع تاريخية ولكنها فى نفس الوقت قصص اجتماعية ، ما كان ينبغى أن تفوت مؤرخ الثورة ، بل ما كان يسوغ للمؤرخين أن يمسوها بالاشارة الطفيفة دون إسهاب وتفصيل

***

كانت فى باريس كما أسلفنا ، سجون عدة اتخذتها لجنة الأمن لضحاياها المساكين ،

وكانت أهم هذه السجون سجن الكونسيرجرى (سجن الحرس) . وهذا المعقل هو الذى اعتقلت فيه الملكة مارى أنطوانيت زوج لويس ولم تخرج منه إلا على عجلة الموت لتقلها إلى ساحة المقصلة

وقد انقسم (سجن الحرس) إلى قسمين ، جناح الرجال ، وجناح للنساء ، ثم انقسم كل جناح إلى أقسام ثلاثة : الأول للأرستوقراطيين الأغنياء الذين ينفق كل منهم على نفسه وعلى زملائه التعساء المعتقلين معه فى غرفته ، والثانى قسم متوسطى الحال الذين ينفقون على أنفسهم خلال اعتقالهم ، والثالث قسم السوقة الذين تنفق عليهم إدارة السجن .

وقد اتفق فى هذا المعقل أن حبس أفراد من أعلى الطبقات وأكثرها تهذيبا ، وأغناها ثقافة مع طائفة من السفاكين ، واللصوص المجرمين ، وقطاع الطرق فكانت هذه المجموعة من أكثر المجموعات البشرية صلاحية للتحليل والدرس ، ومن أدقها ملاءمة للمزاج القصصى البرىء الذى لا يعتمد على الخيال ، ولا يركن إلى الزعم

* * *

كذلك كان هذا السجن فى وضعه ، وفى موقعه ، وفى حوادثه اليومية ، وفى أنظمته الداخلية ، من أغنى الموضوعات للقصص التاريخى ، فعلى جانبى مدخله المخيف ، حوانيت الكتب القديمة ، ومتاجر الأزياء الحديثة يختلف للأولى الأدباء والعلماء والفلاسفة ليتخيروا التصانيف والمؤلفات التى تبحث فى أدق فنون الأدب ، وأعمق مباحث الفلسفة وأسمى نظريات الاجتماع والأخلاق ، ؛ بينما تقع خلفها حيث يحجبها الجدار ، أقسى أنواع الشرور والآثام ، وأبشع أنواع الظلم والاستبداد !!!

ويختلف للثانية طلاب الزينة والبهرج والسكفون بأزكى أنواع العطور ، بينما تقع خلفها أوكار والاعتقال مليئة بالقاذورات تنبعث خلالها الروائح الكريهة التى تزكم الأنوف !!!

فاذا اجتزت باب السجن ، رأيت غرفتين : إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار . جلس بأولاهما رئيس الحراس وهو رجل بدين لفحت وجهه ريح الاستبداد والشر يبسم ساعة ويقطب ساعتين ، إذا رضى فهو الشخص المستبد العادى الذى يصب نقمة سادته على ضحاياهم فى هدوء ، وإذا غضب فويل لهؤلاء المساكين وويل لمن يخاطبه منهم رجالا كانوا أو نساء ، فهو الحاكم بأمره ، المتصرف فى شؤون هذا السجن من أولها إلى آخرها

واجتمعت بثانيتهما طائفة من الحراس غلاظ القلوب ، ترى أحدهم بين آونة وأخرى يتباهى بما أنزل بفريسته من عسف وإرهاق ، وإلى جانب هذه الطائفة عدد من الأسرة القذرة تنبعث منها رائحة كريهة ، لا تعدلها إلا تلك الروائح الفائحة التى تنبعث من غرف المعتقلين

فاذا ما قدر لأحد الناس أن يجتاز عتبة هذا المعقل رأى أمام رئيس الحراس منضدة عليها سجل قذر ، انساب إليه البلى ، فبدا بشع المنظر هو الآخر ، وفى هذا السجل تثبت أسماء الضيوف التعساء

ومن الغريب أن صاحبنا شارل — وهو اسم الرئيس — يكاد يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب إلا بجهد شديد ، فتراه حين يثبت اسم السجين الجديد يوم ينزل بهذا المعتقل ، يكتبه ما استطاع الهجاء ، فإذا ما حل الليل وأراد الحراس أن يطمئنوا إلى الضحايا بنذائهم ، أخطأوا فلا يجيب صاحب الاسم بطبيعة الحال : وعندئذ يعيد الحراس النداء حتى يتبينوا ذلك الشرير الذى لم يجب نداءهم لأول مرة فإذا ماعرفوه أنزلوا به كل ما استطاعوا من نقمة وعذاب .

* * *

وأما غرف هذا السجن الرهيب فقد عرفت بأرقام مسلسلة لقسم الرجال ، وأرقام مثلها لقسم النساء وهو نظام عادى لا يلفت النظر ولا يثير الدهشة ، وإنما الذى يلفت النظر من هذه الأرقام كلها رقم ١٣ أو الغرفة رقم ١٣

فقد كانت هذه الغرفة موضوع الحديث حين يجتمع الحراس فى غرفتهم ليلا ، بل حتى حين يستلقون على فراشهم ليستريحوا من عناء عملهم اليومى المفجع

كان سكان هذه الغرفة خليطاً من الرجال المتهمين بمداولتهم للثورة وخصومتهم لأنصارها وزعمائها ويتهم الأدباء والكتاب والساسة وخاصة النوم ، ومن طائفة أخرى من السفاكين واللصوص وقطاع الطريق ، وغيرهم من المجرمين الفاتكين

ولم يكن أثاث هذه الغرفة سوى بعض الأسرة المتناثرة هنا وهناك ، عليها فرش يدرك من ينظر إليها لأول وهلة أنها وثيرة مريحة ، فإذا ما خبرها وجدها صلبة لتكاثف ماحشيت به من القش ، تنبعث منها روائح كريهة كتلك التى تنبعث من كومات القمامة ، ويكاد الناظر إليها يحسبها مغطاة بالمخمل الأسود : ولكنه حين يتبينها يجد أن صفحتها البيضاء قد توارت تحت طبقات من الأوساخ والقاذورات

وبأحدى أركان الغرفة أوعية قذرة كريهة الرائحة ملأت جو الغرفة بغازات خانقة ، أعدت هذه الأوعية لقضاء ما يقضى الناس من حاجة ، وهى تظل مكانها إلى أن تمتلىء فلا يسمح الحراس بأخراجها من الغرفة إلا إذا تحققوا من فيضان ما فيها على الأرض الرطبة القذرة

* * *

كان المركيز سان كاود بين نزلاء هذا الجحر القذر ، ولم يكن إلى يومنا هذا الذى نحدثك عنه قد حوكم أمام المحكمة الثورية ، وكان معه فى المكان نفسه طائفة من الخاصة لا ذنب لهم إلا أن الجواسيس اتهموهم بكراهية الثورة ، وطائفة أخرى من اللصوص والقتلة الذين عبثوا بالأمن وأفسدوا فى الأرض

وكانت المركيزة سانت كلود زوج المركيز معتقلة بقسم النساء ، فكانت ترى زوجها وزملاءه كل صباح وهم يروحون ويجيئون أمام الغرفة ، تحت إشراف الحراس ، فتشير إليه تحية تحية الصباح دون أن تستطيع التحدث إليه لاتساع الشقة بينها فالفاصل بين القسمين فناء فسيح ..

جلس المجرمون الثلاثة شارل وبيير وبلقى المعتقلون مع المركيز وزملائه بالغرفة رقم ١٣ ذات مساء يتحدثون قال شارل : عجبا للمركيز المسكين إنه يتلقى تحيات زوجه رابط الجأش ثابت الجنان ، قال بيير : ماذا يفعل إنه مذهول ، أليس يديم التفكير فى رأسه المستدير ذى الشعر الذهبى الجميل حين يفصله موسى سيدنا الحلاق (الجلاد) ؟؟ فأردف بلقى : لا أظن الأمر كذلك ياسيدى إنه كثير التفكير فى رأس زوجه حين يسقط فى ساحة الأعدام

وشجر الخلاف بين أصحابنا الثلاثة ثم عادوا إلى عدائهم ، والمركيز يرمقهم بعين الأشفاق والاكتئاب ، ثم عاد الرفاق إلى الحديث بعد هنيهة قال بيير : إنه مسكين حقا ، لماذا يجزون رقبته كما سيجزون رقابنا ؟ إنه لم يجن على أحد ولم يلحق الأذى بأحد ، وما الفارق بينه وبينى يا شارل ، لقد أزهقت أرواح ثلاثة عشر ، وها أنذا على تمام الأهبة لاضافة قريبة أخرى لو أفلت من يد سميك شارل رئيس الحراس

قال شارل : عجبا لك يا تعس ، ألا تعلم أنك لو صحت منا فى السجن صيحة هاتفا للثورة وأنصار الثورة لما مسك أذى ، ولاستطعت أن تؤدى مهمتك إزاء القريبة الرابعة عشرة ؟؟

قال بلقى : أما أنا فلن أقدم عليها ، خير لى أن يرى الناس رأسى بين يدى المسيو سيون (جلاد المقصلة المشهور) من أن أهتف لهؤلاء المجرمين الذين اعتدوا على النساء وأطاروا رؤوس الأبرياء ، فويل لمن يهتف فى هذه الغرفة للثورة والسفاحين ، ولكن هناك شيئا آخر ، ألا نستطيع تخليص هذا المركيز التعس أو تخليص زوجه على الأقل أو الانتقام لها ؟؟

صاح بيير : يالك من غر سديد الرأى عالى الهمة .. وكيف تستطيع تدبير هذا الخيال العجيب ؟

قال شارل : نحمل الزملاء على التمرد فنشعل نيران الثورة فى السجن ، وعندئذ نحاول كل همنا تخليص المركيز والمركيزة ولو طارت رؤوسنا بعد ذلك

فأردف بيير : إننا لو فعلنا لانقذنا أيضا خليلتى روزيت التى اعتقلت معنا لأخفائها نقود العم جان صاحب الحانة الذى قتلناه ، أليست هى والمركيزة عندى سواء ؟؟

وكان المركيز خلال هذا الحديث مستلقيا على فراشه يستمع إلى نقاش الرفاق ، وظل كذلك حتى أتم بيير عبارته الأخيرة ، فاعتدل وضحك ضحكة عالية بددت سكون الغرفة ، ودعا الرفاق الثلاثة إلى سريره ، فلما التفوا حوله وهم أشد ما يكونون ذهولا من هذه المفاجأة

قال لهم : شكرا لكم أيها الرفاق ، لقد ضربتم الرقم القياسي في طيبة القلب ، إني أحسبكم أقل إقداما وإجراما من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أنصار الحرية والأخاء والمساواة لكني أحذركم من أن تقدموا على ما تريدون الأقدام عليه، لأني أريد إراقة دمي على رؤوس هؤلاء الظلمة الغلاظ القلوب ، لأسجل عليهم الجريمة ، ولأستشهد في سبيل وطني وكرامتي ، أما المركيزة فالله معها : إنها المسكينة لم تلق في هذا السجن المظلم إلا من أجلي فهي لم ترتكب جرما ، ولم تقترف ذنبا ، وإنما جرمها الوحيد أنها زوج المركيز سان كلود

وهنا طرق الحارس الباب رقم ١٣ وأنذرهم جميعاً بالويل إن قطعوا حبل السكون مرة أخرى : فأووا إلى أسرتهم وأرجأوا الحديث للصباح

* * *

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي سمع نزلاء الغرفة رقم ١٣ صرير المفتاح في الباب ، فهبوا جميعاً يستقبلون القادم ، فإذا هو رئيس الحراس شارل قدم وحوله شرذمة من الجند يدعو المركيز للمثول أمام المحكمة الثورية ، فخرج المركيز للمثول أمام المحكمة ولم يعد للغرفة إلا بعد ساعتين ترتسم على وجهه ابتسامة الرضا والارتياح ، وأعلن أنه أصبح اليوم تحت تصرف العم (سيمون) صاحب المقصلة فقد حكم عليه بالأعدام دون أن يسمح له بالدفاع عن نفسه

سمع الرفاق الثلاثة هذا النبأ المفجع فقال بيير : تبا لهم ، وسحقاً للأوغاد ، إنهم سيعرفون غداً من هو لابوش (اسم السفاح بيير بين زملائه من السفاحين واللصوص) وماذا يستطيع أن يفعل ؟

* * *

مضت أيام ثلاثة على هذا الحادث ، وإذا بمكان الغرفة يستيقظون في صبيحة اليوم الرابع من نومهم ، فيرون سياج النافذة الحديدية محطما ملتويا ، ويرون حبلا رفيعاً من الحرير مشدوداً إليه ومتدلياً إلى الخارج ، ولا يجدون الرفاق الثلاثة ، ولم تمض دقائق حتى تصايح الحراس ، وأعلنت نذر الخطر ، وأوصدت أبواب الغرف واكتشر الجند في كل مكان ، واشرأبت الأعناق للغرفة رقم ١٣ ، أما كيف فر الرفاق فكان من الأمور التي لا تحتاج إلى بحث : اللهم إلا هذا الحبل الحريري الرفيع ومن وجوده بالغرفة ، والواقع أن بيير كان معتزماً الفرار منذ أحس وهو طليق بأنه سيعتقل ، وأن العيون والشرطة يتعقبونه في كل مكان ، فابتاع حبلا رفيعاً من الحرير لأن الحرير لين وخيوطه إذا اجتمعت في عدد يسير كانت أمتن من الصلب ، ولفه حول وسطه فلم يستطع أحد اكتشافه بعد القبض عليه

* * *

انقضت خمسة عشر يوماً على حادث الغرفة رقم ١٣ ولم يعثر الجواسيس والشرطة على الرفاق الفارين ، وكان هذا اليوم الخامس عشر وهو يوم تنفيذ حكم الاعدام فى المركيز والمركيزة سان كاود ، فأقلتهما عجلة الأعدام إلى مقصلة الم سيمون ؛ وكان المركيز رابط الجأش ثابت الجنان عند ما وصل إلى الساحة الكبرى ؛ وكانت المركيزة شاحبة اللون خائرة القوى ، فوقف مندوب لجنة الأمن وتلا الحكم ، فقال المركيز وهو يبتسم : «إن دمى على رؤوسكم أيها الخونة الذين تفتكون بأخلص أبناء فرنسا لفرنسا »

وما كاد المركيز يتم هذه العبارة ، حتى سمع الجمع الحاشد فى الساحة الكبرى ثلاث صيحات ، انبعثت إحداها من مندوب لجنة الأمن ، والثانية من نائب الأحكام الذى وقف يوم محاكمة المركيز يكيل له أخش السباب ، والثالثة من أحد قضاة المحكمة ، وكانوا جميعاً على مقربة من بعض وقد حضروا ليشاهدوا خاتمة الضحيتين

وانجلت هذه الصيحات الثلاثة عن سقوط الطغاة تحت خناجر الرفاق شارل، وبيير، وبابى.

وهكذا رأى المركيز بعينى رأسه قبل أن يلقى ربه كيف كان السفاكون أسمى نفسا وأكثر مروءة من أنصار الحرية والأخاء والمساواة . . . ! !

(ع)